الأستاذة: كعبش ريمة

المقياس: مقاربات نقدية معاصرة

السنة: الثانية ليسانس

التخصص: دراسات أدبية

بتاريخ:08 -04-2021

المحاضرة الثانية: البنيوية Structuralism

1- نشأة البنيوية :

وكما هو معلوم فإن المنهج البنيوي ظهر كتيار فكري في نهاية الخمسينيات ليتجاوز النزعة التاريخية والفلسفات التي تعتمد الذات كخلفية مثل الوجودية أو الظاهراتية ، مستعينا في ذلك بنتائج العلم التجريبي، فقد اعتمد خلفية عملية وفلسفية أكسبته نسقية منهجية وشمولية ميدانية .

يقول الدكتور عبد العزيز حمودة : « ... فالجذور الخفية للبنيوية تؤكد أنها لم تنشأ من فراغ وأنها امتداد للشكلية الروسية بقدر ما هي ثورة عليها وتطوير للنقد الجديدة بقدر ما هي رفض له، وفوق هذا وذاك فإنها النتيجة المنطقية لإنجازات العقل والتفكير العلمي والفلسفي من ناحية وللتطورات التي حدثت في مجال الدراسات اللغوية من ناحية أخرى ». وكما ذكرت سالفا ، فالبنيوية قد ثارت على الفلسفات السابقة لها ، ولا سيما الفلسفات الوجودية الظاهراتية والماركسية، التي سادت فرنسا في فترة ما قبل البنيوية متخذة من الآثار السيئة للحرب العالمية الثانية وكذلك الممارسات الديكتاتورية والغير ديمقراطية التي سادت العالم الغربي خلال هذه الفترة ذريعة هامة وحاسمة للدخول ساحة المعارك الأدبية والعلمية .

فبعد أن فقد الإنسان الغربي ثقته في هذه الفلسفات كانت الساحة شبه فارغة لمجيء النقد البنيوي وحمله راية الدفاع عن الإنسان المهزوم ، « لكن عبثا يحاول فالإنسان الغربي وإن أبدى ترحيبا بالبنيوية بديلا عن الوجودية ، إلا أنه يعلم أنها ثمرة من ثمار العلم الذي زرع الخوف وجلب اليأس له في الحرب الكونية الثانية وليس أدل على ذلك من القنبلة الذرية في اليابان ، فقط هو يريد أن يجد بديلا يقاوم به فشله في تحقيق السعادة ولو إلى حين ، وهذا ما يفسر المدة القصيرة التي بقيت فيها البنيوية » .

فقد شاعت في منتصف الستينيات وما بعدها بضعة شكوك في الكفاية المنهجية

للبنيوية بشتى حقولها الأنثربولوجية ، والنفسية ، والأدبية ، والمعرفية ، تقول **جوناتان كلر** : « إن اعتماد البنيوية على النموذج اللغوي في الدراسات الأدبية جعلها تنطلق من نظرة سابقة أصلا للعلمية الإبداعية » .

هذا يعني أنه وبما أن البنيوية ظلت أسيرة النموذج اللغوي فقد وقعت في مأزق الوصفية والمعيارية الجامدة وأصبحت نتائج التحليل فيها تتطابق مهما اختلفت حقولها ...

ولكن سرعان ما تحولت هذه الشكوك في نزاهة البنيوية إلى تيار نقدي يحاول نقد الوصفية البنيوية المجردة ونموذجها اللغوي الذي عممته على العلوم الإنسانية ، وقد تم هذا الخروج من أقطاب البنيوية أنفسهم : بارث ، تودوروف ،ألتوسير ، فوكو ، دريدا ... وبدأت أولى هذه الارتدادات حين ألقى دريدا سنة 1966 في جامعة " هوبكنز" بالولايات المتحدة الأمريكية محاضرة حول التفكيك ، ثم جاءت ثورة الطلبة الفرنسيين سنة 1968 تأكيدا لأفول شمس البنيوية وكل ما تمت به من صلة إلى الموضوعية.

ولعل الانتقال من البنيوية إلى السيميائية لأبرز دليل على انهيار الوصفية الموضوعية التي أرستها البنيوية . المعلوم أن مدرسة (الشكليين الروس) ظهرت في روسيا بين عامي 1915 و1930، ودعت إلى الاهتمام بالعلاقات الداخلية للنص الأدبي، واعتبرت الأدب نظاماً ألسنياً ذا وسائط إشارية (سيميولوجية) للواقع، وليس انعكاساً للواقع. واستبعدت علاقة الأدب بالأفكار والفلسفة والمجتمع. وقد طورت البنيوية بعض الفروض التي جاء بها الشكليون الروس.

المصدر الثاني الذي استمدت منه البنيوية هو (النقد الجديد) الذي ظهر في أربعينيات وخمسينيات القرن العشرين في أمريكا، فقد رأى أعلامه "أن الشعر هو نوع من الرياضيات الفنية" (عزرا باوند)، وأنه لا حاجة فيه للمضمون، وإنما المهم هو القالب الشعري (هيوم)، وأنه لا هدف للشعر سوى الشعر ذاته (جون كرو رانسوم).

أما الألسنية فهي **المصدر الثالث** الذي استمدت منه البنيوية، ولعلها أهم هذه المصادر، وعلى الخصوص ألسنية فرديناند دي سوسير (1857–1913) الذي يُعد أبا للألسنية البنيوية، من خلال محاضراته (دروس في الألسنية العامة) التي نشرها تلامذته عام 1916 بعد وفاته. وعلى الرغم من أنه لم يستعمل كلمة (بنية) فإن الاتجاهات البنيوية كلها قد خرجت من ألسنيته، فقد مهد لاستقلال النص الأدبي بوصفه نظاماً لغوياً خاصاً. وفرق بين اللغة والكلام: (فاللغة) عنده هي نتاج المجتمع للملكة الكلامية، أما (الكلام) فهو حدث فردي متصل بالأداء وبالقدرة الذاتية للمتكلم.[1]

[1] محمد عزام – تحليل الخطاب الأدبي على ضوء المناهج النقدية الحداثية . ص 13 .

و كما أسلفنا ؛ ففي نهاية العقد الثاني من القرن العشرين التقت آراء العالم السويسري (فرديناند سوسور) بالتيارات النقدية السائدة في أوروبا ليبرز تيار الفكر البنيوي في الدرس النقدي المعاصر والحديث .

والحقيقة أن الجذور البنيوية تضرب بعيداً في القدم منذ أرسطو والجاحظ والعسكري والجرجاني وقدامة وابن طباطبا وهيغل وماركس.

ففي القرن التاسع عشر نادى الباحث الاجتماعي اليهودي دوركايم بالنظرية المسماة "العقل الجمعي"، ودعا إلى دراسة الظواهر الاجتماعية باعتبارها "أشياء مستقلة"، وتبعاً لذلك ظهر الباحث اللغوي السويسري "فرديناد دي سوسير " بنظريته في "ظاهرة اللغة"، حيث جرد اللغة من دلالاتها الإشارية المألوفة وعدها نظاماً من الرموز يقوم على علاقات ثنائية، ومن هنا ظهرت فكرة "البنية".

2- مفهوم البنيوية:

ومن أبرز ما قرره سوسير بقوة مبدأ "اعتباطية الرمز اللغوي" وهو ما يعني أن أشكال التواصل الإنساني ما هي إلا أنظمة تتكون من مجموعة من العلاقات التعسفية أي: العلاقات التي لا ترتبط ارتباطاً طبيعياً أو منطقياً أو وظيفياً بمدلولات العالم الطبيعي" وأن كل نظام لغوي يعتمد على مبدأ لا معقول من اعتباطية الرمز وتعسفه أي: تماماً كما يعتبط العقل الجمعي عند "دوركايم " ويتعسف فيفرض على الناس ما هو خارج عن ذواتهم، ومن هنا انبعثت فكرة "السيمولوجيا" أي علم الدلالة، أو العلامة والإيحاء.

و يعد دي سوسور رائد البنيوية الأول في العصر الحديث وقد توصل إلى أربعة كشوف هامة تتضمن : مبدأ ثنائية العلاقات اللفظية أي (التفرقة بين الدال والمدلول)، ومبدأ أولوية النسق أو النظام على العناصر، ومبدأ التفريق بين اللغة والكلام ، ومبدأ التفرقة بين التزامن والتعاقب(سانكروني – دايكروني).

وكان للشكلانيين الروس ولاسيما عالم الصوتيات جاكوبسون مساهمات هامة في إغناء الحركة البنيوية.

و يعد(جاكبسون) من أعلام المدرسة الروسية الشكلية التي من أهم آرائها تحرير الكلمة الشعرية من الاتجاهات الفلسفية والدينية والانطلاق من دراسة العمل الأدبي في ذاته، فهي تؤكد أن العمل الأدبي يتجاوز نفسية مبدعه، ويكتسب خلال عملية الموضعة الفنية وجوده الخاص المستقل، وتؤكد أن العمل الفني لا يتطابق بشكل كامل مع الهيكل العقلي للمؤلف ولا المتلقي، أو كما يقول: "موخارو فسكي : "فإن الأنا الشاعر لا ينطبق على أية شخصية فعلية ملموسة، ولا حتى شخصية المؤلف نفسه، إنه محور تركيب القصيدة الموضوع.

و تعني البنيوية عند جورج لوكاش : استخدام اللغة بطريقة جديدة بحيث يثير لدينا وعياً باللغة من حيث هي لغة، ومن خلال هذا الوعي يتجدد الوعي بدلالات اللغة، هذا الوعي الذي تطمسه العادة والرتابة .

و قد حدد لوسيان جولدمان (1913–1970) وهو فرنسي من أصل روماني البنيوية التوليدية على أنها المنهج الذي يحلل النص الأدبي بوصفه بنية إبداعية تخبئ تحتها بنية اجتماعية، وقد أصدر جولدمان عدداً من الكتب المتصلة بقناعاته البنيوية منها: الإله الخفي وعلم اجتماع الإبداع الأدبي ومن أجل علم اجتماع الرواية .

و نرى أن ثمة علاقة بين العلوم المختلفة و البنيوية، خاصة علم الاجتماع و النفس و اللسانيات بالإمكان اختصار مفهوم البنيوية في مقولة ميشيل بريكس : أما المنهجية البنيوية الشكلانية فتهتم فقط بالنسيج اللغوي للنص وتدرسه بذاته ولذاته مهملة صاحبه أو مؤلفه. وهي تنطلق من القناعة التالية: النص هو وحده المهم ولا يفيد في شيء أن نتعرف على حياة مؤلفه لكي نفهمه. وهذا الموقف المتطرف في النقد الأدبي ساد في فرنسا لفترة ولكنه تراجع وانحسر الآن.

و يرى جميل حمداوي أن البنيوية طريقة وصفية في قراءة النص الأدبي تستند إلى خطوتين أساسيتين وهما: التفكيك والتركيب ، كما أنها لا تهتم بالمضمون المباشر، بل تركز على شكل المضمون وعناصره وبناه التي تشكل نسقية النص في اختلافاته وتآلفاته. ويعني هذا أن النص عبارة عن لعبة الاختلافات ونسق من العناصر البنيوية التي تتفاعل فيما بينها وظيفيا داخل نظام ثابت من العلاقات والظواهر التي تتطلب الرصد المحايث والتحليل السانكروني الواصف من خلال الهدم والبناء أو تفكيك النص الأدبي إلى تمفصلاته الشكلية وإعادة تركيبها من أجل معرفة ميكانيزمات النص ومولداته البنيوية العميقة قصد فهم طريقة بناء النص الأدبي.

ومن هنا، يمكن القول : إن البنيوية منهجية ونشاط وقراءة وتصور فلسفي يقصي الخارج والتاريخ والإنسان وكل ماهو مرجعي وواقعي ، ويركز فقط على ماهو لغوي و يستقرىء الدوال الداخلية للنص دون الانفتاح على الظروف السياقية الخارجية التي قد تكون قد أفرزت هذا النص من قريب أو من بعيد.

و يعني هذا أن المنهجية البنيوية تتعارض مع المناهج الخارجية كالمنهج النفسي والمنهج الاجتماعي والمنهج التاريخي والمنهج البنيوي التكويني الذي ينفتح على المرجع السياسي والاقتصادي والاجتماعي والتاريخي من خلال ثنائية الفهم والتفسير قصد تحديد البنية الدالة والرؤية للعالم .

و تقوم البنيوية على فكرة إعادة إنتاج الواقع من خلال إقامة الأنموذج الذي يحدده المحلل نفسه، وهذا الأنموذج سيكون قابلاً للمقارنة مع الشيء الخاضع للدراسة، وإذا مضينا أكثر لتفهم البنائية فعلينا أن نلجأ إلى واحدة من الآليات التي تستخدمها وهي المقابلات الضدية.

يقرر صلاح فضل أن التعريف الأول للبنائية: "يعتمد على مقابلتها بالجزئية الذرية التي تعزل العناصر وتعتبر تجمّعها مجرد تراكب وتراكم، فالبنائية تتمثل في البحث عن العلاقات التي تعطي للعناصر المتحدة قيمة وضعها في مجموع منتظم.

3- مبادئ البنيوية:

استندت البنيوية في تأسيسها كمنهج على مبدأين أساسيين هما:

أ-أدبية الأدب :

إن حركة الشعراء في روسيا، وكتابات الرومانسيين الألمان ستوجه اهتمام النظرية الأدبية نحو التركيز على جانب الانسجام الداخلي للنصوص الأدبية، وستفسح المجال للإعلان عن ميلاد علم للأدب، منذ أن طلق جاكبسون عام 1919 مقولته التي أصبحت فيما بعد كبيان يختزل عمل الشكلانيين والشعريين والبنيويين حيث قال " ليس موضوع علم الأدب هو الأدب وإنما الأدبية أي ما يجعل من عمل ما عملاً أدبياً . فما المقصود بالأدبية ؟

يجيب تودوروف في كتابه- الشعرية -عن تحديد هذا المفهوم المركزي بقوله: " ليس العمل الأدبي في حد ذاته هو موضوع الشعرية، فما تستنطقه هو خصائص هذا الخطاب النوعي الذي هو الخطاب الأدبي، وكل عمل عندئذ لا يعتبر إلا تجليا لبنية محددة وعامة، ليس العمل إلا إنجازاتها الممكنة ولكل ذلك فإن هذا العلم لا يعنى بالأدب الحقيقي بل بالأدب الممكن وبعبارة أخرى يعنى بتلك الخصائص المجردة التي تصنع فرادة الحدث الأدبي، أي الأدبية .

يعد للمؤلف نفس الدور الذي كان يلعبه في النقد السيري، لأن ما يشكل موضوع الدراسة الأدبية ليس الأعمال الأدبية المفردة وإنما الأدبية، بحيث أن العمل الأدبي يرتبط بالنسق الأدبي بصورة عامة وليس بشخصية مؤلفة، فالشاعر في النظرية الشكلانية لم يعد ينظر إليه كصاحب رؤى أو عبقرية وإنما نظر إليه " كعامل ماهر يرتب، أو بالأحرى يعيد ترتيب المادة التي يصادف وجودها في متناوله، إن وظيفة المؤلف هي أن يكون على معرفة بالأدب، أما ما يعرفه عن الحياة أو ما لا يعرفه، فأمر غير ذي أهمية لوظيفته تلك ، إن هذا التصور يذكرنا بالمنجز النقدي العربي القديم خصوصا عند نقادنا الذين قالوا بأن الشعر صناعة وأن الشاعر يقوم بوظيفة السبك والصوغ ولا اعتبار بالمادة التي يصوغ فيها.

ب-و حول نظرية (موت المؤلف) التي تعوّل عليها البنيوية كثيرا ذلك في أن المنهج البنيوي يرفض النظرة التي ترى أن المؤلف هو منبع المعنى في النص ، وصاحب النفوذ فيه ، يرفض ذلك ويؤكد أن الكاتب لا دور له يذكر ؛ فلم يقم بعمل يستحق الثناء والمدح ، وكل ما قام به هو استخدام اللغة التي هي حق مشاع ، وأنه عندما أنشأ النص أنشأه على طريقة من سبقه ، فلم يأت بجديد بل قلد من سبقه في هذا الفن فهو اتجاه يركز على اللغة وكيفية عملها ودلالاتها ، وبذلك يخرج المؤلف خاوي الوفاض ، لا هو مبدع ولا هو عبقري ، وإنما هو مستخدم للغة لم

يبتدعها ، وإنما ورثها مثلما ورثها غيره .

فمع انتشار الاتجاهات النقدية الجديدة مثل " البنيوية وما بعدها " لم يعد ينظر إلى المؤلف بوصفه منشئ النص ومصدره ، كما لم يعد هو الصوت المتفرد الذي يعطي النص مميزاته ، فالذي تتحدث وتنطق هي اللغة وليس المؤلف أو صوته . وأكرر القول أن الإنسان هو ضحية المشروع البنيوي ، « فها هو بارث يعلن موت المؤلف ، فيقول: بأن المؤلف شخصية حديثة النشأة وهي من دون شك وليدة المجتمع الغربي من حيث تنبه عند نهاية القرون الوسطى ومع ظهور النزعة التجريبية ،الإنكليزية، والعقلانية الفرنسية والإيمان بالفرد الذي واكب حركة الإصلاح الديني إلى قيمة الفرد أو الشخص البشري كما يفضل أن يقال ».

ينطلق بارث في حديثة عن " موت المؤلف" من خلال إبرازه حالة الذات في المذاهب الفكرية السابقة ، كالفلسفة العقلية / المثالية والنقد الرومانسي الإنجليزي ، « ولذا فهو يعادي كل دعوة تنادي بدراسة شخصية صاحب النص للوصول إلى الدلالة فيه ».

فالحديث عن " موت المؤلف " كما يؤكدها بارث ، يدخل ضمن الحديث عن نظرية نقدية حداثية عرفت " بنظرية التلقي "؛ إذ يقتضي الحديث عنها تناول محدودية الممارسات النقدية و الإجراءات المنهجية السابقة ، فتاريخ المنهج خاصة في أوربا،عرف –كما رأيت– مسارا تطوريا ، بحيث أن المنهج اللاحق يتجاوز السابق محدثا شبه قطيعة مع أسسه النظرية وأدواته الإجرائية ، فبعد موت الذات العارفة أو المتعالية التي نادى بها أنصار الفلسفة المثالية ، وموت الذات الحاكمة التي نادى بها الرومانسيون ،يقول رولان بارث وفوكو في زمن الحداثة أو المعاصر بـ " موت المؤلف " ، وهي فكرة تجد جذورها عند نيتشه – كما رأيت – في دعوته إلى " موت الإله" ، وهذا كله يدخل ضمن " فلسفة موت الإنسان " – كما يسميها غارودي – لذلك يقول الدكتور **عمر مهيبل** : « لقد جعلت البنيوية من الإنسان رمزا لغويا وسطحا لا امتداد له،وقلصت الظاهرة الفكرية النظرية إلى مجرد هيكل خاو من المعنى ،أي أنه شكل يحذف المضمون كنتيجة.

4-البنيوية في العالم العربي :

لم تظهر البنيوية في الساحة الثقافية العربية إلا في أواخر الستينيات وبداية السبعينيات عبر المثاقفة والترجمة والتبادل الثقافي والتعلم في جامعات أوروبا. وكانت بداية تمظهر البنيوية في عالمنا العربي في شكل كتب مترجمة ومؤلفات تعريفية للبنيوية (صالح فضل، وفؤاد زكريا، وفؤاد أبو منصور، وريمون طحان ، ومحمد الحناش، وعبد السلام المسدي، وميشال زكريا، وتمام حسان، وحسين الواد، وكمال أبوديب....) ، لتصبح بعد ذلك منهجية تطبق في الدراسات النقدية والرسائل والأطاريح الجامعية.

ويمكن اعتبار الدول العربية الفرانكوفونية هي السباقة إلى تطبيق البنيوية وخاصة دول المغرب العربي ولبنان وسوريا ، لتتبعها مصر ودول الخليج العربي.

ومن أهم البنيويين العرب في مجال النقد بكل أنواعه: حسين الواد، وعبد السلام المسدي ، وجمال الدين بن الشيخ، وعبد الفتاح كليطو، وعبد الكبير الخطيبي، ومحمد بنيس، ومحمد مفتاح، ومحمد الحناش، وموريس أبو ناضر، وجميل شاكر، وسمير المرزوقي، وصلاح فضل، وفؤاد زكريا، وعبد الله الغذامي.

ختاما :

فالبنيوية كاتجاه نقدي، لم يكن إلا بعد توطئة معرفية علمية طويلة، كما أسلفنا، و كان يطبق في عصور ممتدة، حتى مضى عهده الزاهر، و أتت بعده مذاهب و اتجاهات أخرى , كالتشريحية أو التفكيكية، خاصة لما رأينا من جمود البنيوية في طبيعتها الصارمة و طريقتها التعسفية التي أبت إلا الأخذ بالداخل في النص دونما النظر إلى الخارج، في تجاهل صريح للمعطيات التاريخية و السياقية و المؤلف و ظروفه المؤثرة . كل هذا أدى إلى البحث عن سبيل آخر لنقد النصوص، لكن مع كل هذا، إلا أن للبنيوية خطرها الكبير و أهميتها التي لا يمكن تجاهلها إذ كانت وليدة للفكر اللساني الذي يعد نقلة كبيرة في اللغويات العالمية .